

مسائل الانتقاد لابن شرف القيرواني

بقلم عبد القدوس أبو صالح

شرف ان يجنبنا بتنوع افكاره ورشاقة اسلوبه ما في كتابه من ملل الاطالة ، وقد اعترف ابن بسام له بذلك فقال : « ولابن شرف مقامات عارض بها البديع في بابيه ، وصب فيها على قلبه ، منها مقامة فيها بعض طول لكنه غير مملول ، اخذة بطرف مستطرف من اخبار الادباء وذكر الشعر والشعراء (٤) » .

ويعرفنا ابن شرف من مقدمة كتابه ببطل مقامته فيقول : « هـذه احاديث صنعتها مختلفة الانواع ، مؤتلفة في الاسماع ... وعزوتها الى ابي الريان ... وكان شيخا هما في اللسان ، وبدرا تما في البيان ، قد بقي احقبا ولقي اعقابا ... فامتحننا من علمه بحرا جاريا وقدحنا من فهمه زندا واريبا (٥) » .

ويعرفنا ابن شرف في مقدمة كتابه ببطل مقامته فيقول : « هـذه وانه عاش اجيالا من العمر وعاشر اجيالا من الناس ليثبت في الذهن انه محيط باخبار الاوائل والاواخر وانه مليء بالعلم مخصو بالادب فاذا انطقه ابن شرف او نطق على لسانه فقد نطق بالصواب واذا سئله احكم الجواب . كما لا يفوت ابن شرف ان يذكر ما اعتاده اهل المغرب من امتحان المشاركة الوافدين عليهم . وهذا التقليد سار عليه اهل المغرب منذ ايام عبد الرحمن الناصر ولعلنا لا ننسى قصة ابي علي القالي يوم استقبله في الاندلس اذ تزعم بعض الكتب انه روى بيتا مكسورا ثلاث مرات حتى لوى ابن رفاعة عنان فرسه وانصرف راغبا عنه (٦) .

ولعلنا نستطيع بشيء من التقديم والتأخير لبعض المقاطع والاجزاء ان نرجع ما تبقى لنا من «مسائل الانتقاد» الى فصول خمسة تحتوي على نقد لمشاهير الشعراء وعلى حديث عن النقد ومبادئه ثم تلثم بسقطات الشعراء وعيوب الشعر لتنتهي بالخاتمة . وما دمنا في صد التعريف بمسائل الانتقاد هذه فقد اخترنا منها فصلا واحدا هو حديث ابن شرف عن النقد ومبادئه لنجد فيه نموذجا لهذه المسائل الممتعة . وقد قدم ابن شرف لهذا الحديث بقوله : « قلت لابي الريان في مجلس عقيب هذا المجلس : يا ابا الريان لقد رايت لك نقدا مصيبا ومرمى عجيبا ، ولقد ارجب في ان اتال منه نصيبا » .

ويسرع ابو الريان باجابة ابن شرف الى ما يريد فيقرر ان النقد هبة فطرية تولد مع الانسان ، وهي مع ذلك تنمو وتتسع بما يكتسب من ثقافة ومعارف وبما يمارسه ويعرض له من مسائل النقد . ويحتج لذلك بانه رأى بعض علماء الشعر ورواته الذين درسوا ضروره ومحاسنه وطبقات رجاله ، لا يحسنون نقد الجيد من الرديء ، ولا تميز الطبوع من المصنوع بينما ترى كثيرا ممن لا علم لهم بالشعر والنقد يسمعون احدهم القصيدة او البيت من الشعر فلا يلبث ان يميز الخبيث من الطيب ويتعرف الى القوي من الضعيف التهافت بفضل موهبته وطبعه النقاد . وهنا تشتد رغبة ابن شرف في ان يتحلف ابو الريان بالهم من مبادئ النقد فيجيبه هذا بان اول ما يجب على ناقد الادب ان يتصف بالهدوء والنائي ليسنى له انعام النظر واعمال الفكر فيما يريد ان يتقدم من نصوص لان العجلة من مواظي الهلكة ، فاذا اتيت بشعر يملا السامع بما في مبناء من فخامة وقمعة فلا يجعلك ذلك الى قبوله حتى

قال ابن خلدون : « ما كان بافريقية من مشاهير الشعراء الا ابن رشيقي وابن شرف (١) » فاما ابن رشيقي فقد عرفه الناس من كتابه « العمدة في صناعة الشعر ونقده » واحلوه المنزلة التي هو اهل لها ، واما ابن شرف الذي لم يكن يقل في عصره مكانة صاحبه وتقدمه في ميدان الشعر والنثر ، فقد ضاعت آثاره كلها وكاد يضيع معها لولا هذه الفصول القليلة التي ابقت عليها الايام من « مسائل الانتقاد » ولولا هذه الباقية من الشعر جمعها له ابن بسام في « ذخيرته » مع فصول من نثره وجملة من اخباره ليقول فيه « وكان ابو عبدالله بن شرف بالقيروان من فرسان هذا الشأن ، واحد من نظم فلائذ الاداب وجمع اشتات الصواب ، وتلاعب بالنظوم والموزون تلاعب الرياح باعطاف الفصون ، وبينه وبين ابي علي بن رشيقي ماج بحر البراعة ودام ، ورجع نجم هذه الصناعة واستقام (٢) » .

ولقد كانت حياة الرجل حافلة كادبه ، فينما كان شاعر بلاط وكاتب ديوان يرفل بمطارف النعمة تحت سماء الوطن اذا بالقيروان تتعرض لتلك الفتنة التي تركتها كالبصرة في فتنة الزنج ، واذا به يهجر وطنه على كره منه ليطوف في ربوع صقلية ناديا وطنه بشعر حزين جميل ، ثم لا يلبث ان يهجر هذه الجزيرة الى بلاطات الاندلس لينتقل عند ملوك الطوائف ، وقد فلتته الخطوب وادركته حرفة الادب .

وفي هذه المهاجر التي كانت تتقاذف ابن شرف الف « مسائل الانتقاد » ومعنى هذا ان تاريخ النص يعود الى العقد السادس من القرن الخامس الهجري ؛ وقد امتد بيننا وبين هذا القرن زمن طويل ما زال ينتقص من هذه المسائل حتى اتى على ثمانية عشر حديثا منها ولم يبق الا على حديثين فقط ، وقع عليها الاديب التونسي حسن حسني عبد الوهاب في مخطوطتين متكاملتين تقريبا ، اولاهما من مخطوطات الاسكوريال وترجع الى القرن الخامس والثانية مخطوطة تونسية تعود الى القرن السابع . وقد نشرهما سنة ١٩١٢ باسم « رسائل الانتقاد » في مجموعة « رسائل البلقاء » لمحمد كرد علي ، ولا ادري مصدر هذه التسمية ما دامت المقامة تنتهي بهذه الجملة « تمت المقامة المعروفة بمسائل الانتقاد (٣) » ثم اعاد عبد العزيز امين الخانجي طبع الكتاب سنة ١٩٢٦ معتمدا على « رسائل البلقاء » وعلى مخطوطة اخرى شامية ترجع الى القرن الحادي عشر ، وجاعلا عنوان الكتاب « اعلام الكلام » . وقد فات كلا المحققين السابقين ان يرجعا الى كتاب الذخيرة ليستكملا بها تحقيق النص ، ولعل عندهما في ذلك ان الذخيرة لم تكن قد نشرت بعده ثم استدرج هذا النص المستشرق الفرنسي Pellat حين اعاد طبع الكتاب مع الترجمة الفرنسية سنة ١٩٥٢ .

وقد اتبع ابن شرف في كتابه اسلوب المقامات مقلدا بديع الزمان الذي كان معاصرا له ، كما قلده من بعد ذلك ايضا ابن شهيد الاندلسي في « التوابع والزوابع » . ويظهر تاثر ابن شرف خاصة بالمقامة الفريسية للهمذاني فهي نقطة البدء التي انطلقت منها عزيمة ابن شرف الى معارضة البديع ، غير ان ابن شرف وفق في النهوض بالمقامة من حديث سريع مقتضب الى كتاب له مقدمته وله فصوله وخاتمته وله قبل ذلك كله موضوعه الذي لا يكاد يخرج عنه ، وكذلك استطاع ابن

(٤) الذخيرة ٤ - ١٥٤ .

(٥) رسائل البلقاء ٣١١ .

(٦) معجم ما استمع ٧٤٥/٣

(١) مقدمة ابن خلدون ٥١٨ .

(٢) الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ٤ - ١٣٣ .

(٣) رسائل البلقاء ٣٤٣ .

لنفسه عن معناه « فان كان خاليا فاعدهه جسما باليا (٧) ، وكذلك اذا سمعت شعرا لم تترك الفأفة فلا يعجلتك ذلك الي رده « فكم من معنى عجيب في اللفظ غريب » . وهنا يخلص أبو الريان الى ان يقول : «والعاني هي الأرواح والألفاظ هي الأشباح . »

ويتابع أبو الريان كلامه منتقلا الى فكرة القديم والمحدث والى المعاصرة وما تجر من هزيمان فيقول : « وتحفظ عن اثنين أحدهما ان يحملك اجلال القديم المذكور على العجلة باستحسان ما تستمع له ، والثاني ان يعملك اصفارك المعاصر المشهود على التهادن بما انشدت له ، فان ذلك جور في الاحكام وظلم من الحكام ، حتى تمحص قولهما ، فحينئذ تحكم لهما او عليهما ، وهذا باب في اقتلاعه استصعاب ، وفي صرف الصامة وبعض الخاصة عنه اتعاب . ثم يستشهد على تثبيت القلوب بالقديم ونفورها من المحدث الجديد بقوله تعالى : « انا وجدنا آباءنا على امة » ويقول (لن نعيد الا ما وجدنا عليه آباءنا كما يورد لنفسه آياتنا من الشعر جهد ان يخلص فيها هذه الفكرة فقال :

أفري الناس بامتساح القديم وبدم الجديد غير ذميم
ليس الا لانهم حسدوا الحي ورفوا على العظام الرميم
قل لمن لا يرى المعاصر شيئا ويرى للوائيل التنديما
ان ذلك القديم كان جديدا وسيغدو هذا الجديد قديما

وعقب على ذلك بقوله : « فلا يرعك ان تجري على منهاج الحق فيه قامت السموات والأرض .. سامثل لك في ذلك مثلا ، واملا اسماعك مقالا ، وفهمك عدلا واعتدالا » . وهذا المثال هو آيات لامرئ القيس ينتج ما رأى فيها من سقطات فيخطيء حينما ويصيب حينما اخر . ولن نجاري ابن شرف في مثاله لانه يدخل في الفصل السذي عنده عن سقطات الشعراء وانما قدم الكلام هنا على سقطات امرئ القيس لانه في عجلة الى دعم اقواله الى تقديم حجة عكسية على انصار القديم . وانما سبيلنا الان ان ننظر فيما قدمه ابن شرف من اراء في هذا الفصل ، وما فيها من اعتماد على القديم وتنبه ، وما خالطها من جهد شخصي وتجديد .

والفكرة الاولى التي يقدمها ابن شرف عن قيمة الموهبة في النقد فكرة جليلة حقا ، لان هذه الموهبة اذا نالت عناية وتمهدا كافيا كان لصاحبها من الذوق ما يجعله ناقدا مجيدا ، ولان في طبيعة الادب وهو من الفنون الجميلة ما يجعل الذوق المرجح الاخير في النقد مهما تعددت قواعد التحليل ومناهج الدراسة . وقد عبر ابن شرف عن قيمة الطبع او الموهبة بقوله : « النقد هبة الموالد » كما عبر عن اهتمامه بتثقيف هذه الموهبة بقوله : « وفيه زيادة طارف الى تالد (٨) » فالنقد عند ابن شرف طبع يوهب وصناعة تكنسب بالثقافة واليران وهذا التعريف تكاد نجده بكامله في قول الجرجاني صاحب الوساطة « وملاك ذلك كله ، وتمامه الجامع له ، والزام عليه ، صحة الطبع وادمان الرياضة ، فانهما امران ما اجتمعا في شخص فقصر في افعال صاحبهما عن غايته ، ورضيا له بدون نهايته (٩) . كما اننا نجد الاموي يسبقهما الى الحديث عن اهمية الموهبة عندما يقول : وان لم ينته بك التأمل الى علم ذلك فاعلم انك بمنزل عن الصناعة (١٠) وكان الاموي يعتقد ان الطبع لا يكفي ما لم يكن هنالك مران وممارسة لصناعة النقد فهو يقول : « فمن سبيل من عرف بكثرة النظر من الشعر والارتياض فيه وطول اللابسة له ، ان يفضي له بالعلم بالشعر والمعرفة باغراضه ، وان يسلم له الحكم فيه ويقبل منه ما يقوله ويعمل على مثاله ولا ينازع في شيء من ذلك ، اذا كان من الواجب ان يسلم لاهل صناعة صناعتهم ولا يخاصمهم فيها ولا ينازعهم الا من كان مثلمه نظرا في الخبرة وطول الدربة والممارسة ولو تقصينا بدور هذه الاخطاء لوجدناها في مثل قول ابن سلام : « وللشعر

صناعة وثقافة يعرفها اهل العلم ، كسائر اصناف العلم والصناعات (١١) ثم في قوله : « وان كثرة المدارس لتعدي على العلم » . واذا كان ابن سلام لم يتحدث في مقدمته عن الطبع والذوق وقيمتها في النقد فانه اخذ بهما في تصنيفه لطبقات الشعراء وفي حديثه عنهم .

واما النصيحة التي اسداها ابن شرف للناقد بان « لا يستعجل باستحسان واستقباح حتى ينعم النظر ويستخدم الفكر » فهي تذكرةنا بقول الامدي : « فينبغي ان تنعم النظر فيما يرد عليك ، ولن ينتفع بالنظر الا من يحسن ان يتأمل ومن اذا تأمل علم ، ومن اذا علم الصفا » ونحن نعتز مع ابن شرف بقيمة هذه النصيحة القيمة . فان هبذء النقد الحديثة لا تزال توصي بانعام النظر وتقليب النصوص وقراءتها مرات عديدة لان الناقد لن يطلع على كل ما في النص من جمال وقبح دفعة واحدة ، ولان الفكر الملل يجب ان يتصف بالهدوء العلمي حتى يحسن المعرفة والتعليل . .

والفكرة الثانية التي يقدمها ابن شرف تدور حول اللفظ والمعنى، ونحن نعلم ان تيار النقد الادبي كان لفظي الاتجاه عند امثال الجاحظ وقدامه والامدي والعسكري من علماء القرنين الثالث والرابع . وفي اواخر القرن الرابع اتجه النقد نحو نصرة المعنى على يد ابن جني الذي عارض بمفرده موجة التيار اللفظي . وفي القرن الخامس تمثلت نصرة المعنى في الدعوة الى الموازنة بينه وبين اللفظ وفي ادراك النقاد ان الفن وحده لا يمكن ان يفرق بين عناصره هذا التفريق الصناعي، واذا امكن تفريق عناصر الشعر تفريقا نظريا لدراسته فيجب ان لا يتعدى هذا التفريق الى التفصيل والى تمييز بعض العناصر على حساب بعضها الاخر (١٢) . وهكذا ذهب ابن رشيق معاصر ابن شرف ومنافسه الى القول : « اللفظ جسم وروحه المعنى وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم يضعف بضعفه ويقوى بقوته (١٣) » . الا ان ابن شرف كان اشد من صاحبه نصرة للمعنى على اللفظ ، فهو يرى مثل ابن شيق ان المعنى كالروح وان اللفظ كالجسد ، ولا حياة للجسد الا بالروح ، فسلا قيمة للفظ الا بما فيه من معنى ، ولكنه يذهب الى ان المعنى الرائع قد يقع في الفاظه دون روعة والى انه اذا كان لا مناص من قبح ينال احد العنصرين فلنقتصر ان يكون في اللفظ ولنحذر ان يكون قبحا في المعنى : « وانظر الى ما في سكناه من معناه ، فان كان في البيت ساكن، فنلك المعاسن ، وان كان خاليا ، فاعدهه جسما باليا . وكذلك اذا سمعت الفاظا مستعملة وكلمات مبتذلة ، فلا تعجل باستصعافها حتى

(١١) طبقات فحول الشعراء ٦

(١٢) امالي الدكتور امجد الطرابلسي - كلية الاداب جامعة دمشق

(١٣) العمدة (٨٠)

دراسات ادبية

من منشورات دار الاداب

لمحيي الدين صبيحي

نزار قباني شاعرا وانسانا

للدكتور محمد مندور

لهايا جديدة في ادبنا الحديث

لرجاء النقاش

في أزمة الثقافة المصرية

(٧) رسائل البلاء ٢٢٤

(٨) رسائل البلاء ٢٢٤

(٩) الوساطة بين المتنبي وخصومه ٣٠٦

(١٠) الموازنة ١٧٧

نرى ما في اضعافها فكم من معنى عجيب في لفظ غريب. والمعاني هي الارواح ، والالفاظ هي الاشباح (١٤) فان حسن ذلك الحظ المدوح ، وان قبح احدهما فلا يكن الروح (١٥) .

وهكذا نجد ابن شرف اقرب من ابن رشيق الى معاصرها الامام الجرجاني الذي يقول في اسرار البلاغة : « الالفاظ خدم المعاني والمعرفة في حكمها . وكانت المعاني هي المالكة سياستها المستحقة طاعتها . فمن نصر اللفظ على المعنى كان كمن ازال الشيء عن جهته . واماله عن طبيعته ، وذلك مظنة من الاستكراه ، وفيه فتح ابواب العيب والتعرض للشين » . وهذا لا يعني ان ابن شرف والامام الجرجاني كانا بعيدين في واقع الامر عن الدعوة الى التاليف بين اللفظ والمعنى والمساواة بينهما ، وانما تمثلت في عبارتهما ردود الفعل ضد التيار القديم تيار اللفظية الجامع .

واما الفكرة الاخيرة في هذا الفصل فهي تعرض للخلاف بين القديم والحديث والى موقف الناس من المعاصرين ، كما تدعو الى جعل الجودة والاحسان مقياسا للتقدم ، وابن شرف يلخص على عادته هذه الفكرة عن المتقدمين اذ لا يكاد يخلو كتاب من كتبهم من الحديث عن القدماء والمحدثين . ولعل اول من وقف موقفا صريحا واضحا من هذه القضية هو ابن قتيبة حيث يقول : « ولا نظرت الى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، والى المتأخر بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل على الفريقين .. فكل من اتى بحسن من قول او فعل ذكرناه له واتينا

(١٤) جاء في القاموس المحيط « الشبح » الشخص ، والشخص سواء الانسان وغيره تراه من بعد

(١٥) رسائل البلاء ٣٢٥

دار المعارف لبنان ش.م.ل.

ناية العسلي - السور - ص.ب ٢٦٧٦ - تلفون ٢٣٥٧٤

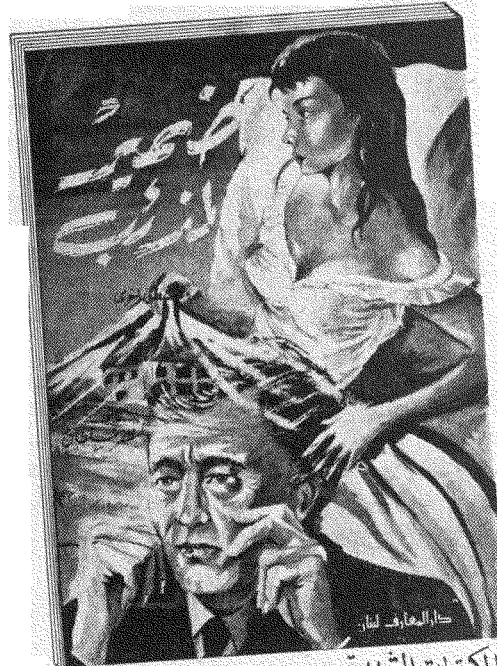
مجموعة من اروع ما يصير الطريقة المتبعة من صميم الحياة التربوية ، تراءى في مطروحاتنا القضايا النفسية والاجتماعية والادبية ، ونصير على فيها العواطف على اعفت ما كبرت ا

ضمير الزئب

ان هذه المجموعة مطروحة في
دروعة ، شعرا ونثرا
العربية نحو المستر ابراهيم

وغيره اخرى

تأليف
زفر سلطان



تحت التسمية
٣٠٠ ق.ك.
أوما يعلوا

تطلب من جميع المكتبات الشهيرة

به عليه ولم يضعه عندنا تأخر قائلة او فاعله ولا حداثة سنة كما ان الرديء اذا ورد علينا للمقدم او الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه (١٦) .

ومن هنا استمد ابن شرف وامثاله افكارهم في هذا الموضوع مع تحوير في التعبير واختلاف في العرض لا يخرجان بها على الاصل . وهكذا نجد صاحب الوساطة يسبق ابن شرف فيقول في حديثه عن القدماء والمحدثين : « ولست افضل من هذه القضية بين القديم والحديث والجاهلي والخضرم والاعرابي المولد » وكذلك ياتي صاحب العمدة فيفرد بابا للقدماء والمحدثين يقول فيه : « كل قديم من الشعراء فهو محدث في زمانه بالاضافة الى من كان قبله » . ويقول في مكان اخر (والمتأخر من الشعراء في الزمن لا يضره تأخره اذا اجاد كما لا ينفعه تقدمه ان آخر) ونلاحظ ان ابن شرف يلج في الحديث عن المعاصرين وما ينالهم حتى ليصير عن المحدثين بالمعاصرين ، والظاهر انه متأثر في ذلك بموقف اهل عصره الذين اصبحوا لضعف شعرائهم يعتبرون كسل متقدم قديما ، وان كان في عرف القدماء محدثا واصبحوا يرون في المحدثين ممن يرأسهم بشار قدماء بالنسبة الى هؤلاء المعاصرين المتخلفين في صناعة الادب ومع ذلك يعطى ابن شرف امتحان المعاصرين بحسد الناس لهم لانهم احياء يعيشون بين ظهرانيهم . اما البيتان الاخيران اللذان اوردهما فليسا الا نظما لقول ابن قتيبة : « وجعل كل قديم حديثا في عصره وكل شرف خارجية في اوله ، فقد كان جربر والفردق والاخلط وامثالهم يعدون محدثين .. ثم صار هؤلاء قدماء عندنا بعد العهد منهم وكذلك يكون من بعدهم لمن بعدنا »

واخيرا نقول اذا كان ابن شرف لم يصدر في نقده عن منهج معين، ولم تكن شخصيته متميزة في « مسائل الانتقاد » ولم يكن له من اصالة الحس النقدي ما كان للامدي والجرجاني ، فقد كان على كل حال واحدا ممن قاوموا التيار اللفظي ودعوا الى المساواة بين اللفظ والمعنى ، وكانت له في النقد لمحات نبه فيها الى قيمة الملكة النقدية وضرورة تهدها بالثقافة والمران ، كما حاول ان يدافع عن المعاصرين دفاعا طبيعيا تدعمه الحجج والامثلة .

واذا كان يلخص معظم آرائه عن المتقدمين ، فقد كان له في هذا الجمع والتلخيص وفي اضافة بعض اللحاحات الشخصية فضل لا بأس فيه ، وخاصة اذا علمنا ان نظريات النقد الكبرى قد استكملت او كادت في القرن الخامس الهجري وان موضوعاته الرئيسية قاربت ان تجف حتى كان من ذلك انصراف بعض الادباء بما وصلهم من نظريات النقد وارئ النقاد الى عرضها عرضا فنيا او تطبيقها عمليا على جملة من الشعراء وحتى كانت لنا من ذلك هذه التحف الفنية التي الفت في زمن واحد تقريبا والتي منها « رسالة الفجران » وبعض « مقامات البديع » ثم « رسالة التوايح والزوايح » و « مسائل الانتقاد » هذه .

ومن هنا لم يكن لنا ان نحكم على « مسائل الانتقاد » وهي تحفة فنية ذات موضوع نقدي كما نحكم مثلا على « عمدة » ابن رشيق التي ألفها صاحبها في « صناعة الشعر وتقدمه » لان القصد الفني في طريقة العرض والاسلوب كان يعد برسائل الانتقاد عن الموضوعية والاستيفاء ، ويلجئها الى الاختصار والبحث عما « تتعلق به شهوات الاحداث وتستعذب بسحره الفاظ الحداد » .

ولعلنا لا ننسى اننا مهما تحدثنا عن « مسائل الانتقاد » فاننا ننظر الى حديثين من عشرين حديثا ، ولو وصلت اليها كاملة لكننا اقرب الى انصاف مؤلفها والى ان نحلها المكائنة اللاتقة به كناقد ادبي ، وعلى كل فان ابن شرف يظل كما كان من قبل ، منافسا لصاحبه ابن رشيق يستوي معه في صعيد واحد من ادب المغرب ، ولا يقل عنه منزلة في تاريخ الادب العربي !

عبد القدوس ابو صالح
مجاز في الاداب والحقوق

حلب

(١٦) الشعر والشعراء ه